بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات في قصيدة الطلاسم

د.ميسون مرازيق

جامعة جرش– المملكة الأردنية

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى قراءة تأملية في ملحمة من ملاحم الشعر الرومانسي بتأملاتها الفلسفية وتعبيرها عن حيرة الشاعر أمام ألغاز الحياة وأسرارها، وأمام القضايا الكبرى التي حيرت الفلاسفة من بدء التاريخ كالتساؤل عما بعد الموت وعن سر الحياة ولماذا يولد الإنسان ويموت، وفي إثارتها الأسئلة عن تناقضات الحياة كالفقر والغنى والسعادة والحزن والضحك والبكاء والطفولة والشيخوخة، ثم عن تعاملها مع مظاهر الطبيعة كالبحر والرياض والقفار.

Contemplation of al-Talasim Poem

This research is a meditating study of aromantic epic which seeks to explore the poet's my stification of life's secrets and big questions. Those are like the issues which were thought of bg ancient philosophers as death and life .Also the study focuses on the paradox of life as in poverty , richness , happiness ,sadness , laughter cry , childhood and aging , and its retation to nature as sea , gardens and desert.

قصيدة الطلاسم [1] لإيلياء أبي ماضي من المطوّلات إذ تبلغ مائتين وثمانية وستين بيتاً، وهي منظومة على مجزوء الرمل بتفاعيلة الأربع، وأكثر أبياتها مدورة وإن كتبت جميعها بشطر واحد فبدت كلها مدورة. والقصيدة مكتوبة على شكل مقطّعات عددها سبع وستون مقطعة، وكل مقطعة تتألف من أربعة أبيات قصار مختومة بلازمة هي (لست أدري). ولكل مقطَّعة قافيتها الخاصة بها.

وتعد المطوّلات من القصائد النادرة في الشعر العربي إذ لم يكتب فيها الشعراء كثيراً . وتعرّف المطولة بأنها القصيدة الوسط بين الملحمة والقصيدة الغنائية المعروفة. غير أن هناك من النقاد من يركز على طبيعة الموضوعات فيرى أن المطولة هي القصيدة التي يتحتم على العقل استيعاب ما تطرحه من مفاهيم وقضايا في وحدات غير متصلة كما يرى التعقيد عنصراً أساسياً في القصيدة الطويلة، فيحين تكون البساطة والتجديد في العاطفة من عناصر القصيدة الغنائية القصيرة [2]. وتنوع القضايا المطروحة عبر بناء قائم على وحدات نامية تستعير بعضاً من تقنيات البناء القصصي من حوار وحدث وسرد داخلي، وغالباً ما ترتبط المطولة بالحس الدرامي. كما أكد بعض النقاد على أن الطول ليس وحده ميزة للعطاء الدرامي الذي تتميز به المطولة[3].

ومن النقاد من يذهب إلى أن الإفاضة أو التوسع في كتابة القصائد الطوال كان يؤدي وظيفة نفسية عمادها الانفعال الطاغي الذي تتأثر خلاله أكبر طاقة عصبية يتم التنفيس عنها لدى الشاعر ويأمل خلق أقصى درجة من التجاوب عند القارئ[4].

ولعل الأدب العربي القديم لم يعرف المطوّلات، وإن وجدت مطوّلات تسرد حوادث تاريخية أو قواعد فقهية أو نحوية أو صرفية وهذه بعيدة في روحها عن الأدب. أما المعلقات التي عرفها الشعر الجاهلي فهي تمتاز بالطول والتنوع وتعدد الأغراض والتحرك على مساحة واسعة بين الزمان والمكان غير أن مما يؤخذ عليها طغيان الحس الغنائي وافتقارها إلى الوحدة الموضوعية. والطول الذي يميزها أمر مفتعل يأتي من حشد موضوعات وأغراض كثير فيها مما يبعدها عن القصيدة المطولة التي نتحدث عنها اليوم .

أما مطوّلات العصر الحديث كمطولات البارودي وأحمد شوقي والزهاوي والجواهري فهي ذات طابع غنائي تعتمد على عنصر الكم[5]. إن هذه القصائد تكتسب طولها من اشتمالها على عدة موضوعات غنائية وعلى مجموعة مفرقة من الم شاعر الجزئية السريعة ومن هنا كثر عدد أبياتها ، فهي في جوهرها غنائية[6]. وليس فيها من عناصر المطولات الدرامية شيء.

وبسبب متغيرات الواقع الاجتماعي والسياسي وتنوع الروافد الثقافية المعاصرة بدأ ال شعر المعاصر يشهد المطوّلات ذات الموضوع الواحد والمكرسة لمعالجة قضية فنية اجتماعية أو ذهنية أو نفسية كما رأينا في طلاسم أبي ماضي التي تعد إرهاصاً بميلاد مطولة ذات بعد نفسي أو درامي وقد قلدها بعض الشعراء المعاصرين مثل الشاعر محمد صالح في قصيدته (أين حقي) إذ تكررت هده اللازمة (أين حقي) في نهاية مقطعات قصيدته الطويلة على نحو ما صنع أبو ماضي .

ولا بد قبل الولوج إلى عالم (طلاسم) أبي ماضي من القول أن خمسينات القرن الماضي شهدت المطوّلات العربية ذات المزايا والعناصر الدرامية والموضوعية التي أهلتها لحمل اسم المطولات بجدارة مثل مطوّلات (موت المتنبي) للبياتي و(الظل والصليب) لصلاح عبد الصبور و(التحولات) و(المسرح والمرايا) لأدونيس و(سفر الينابيع) لخالد علي مصطفى . ولعل أروع مطولات الخمسينيات وأكثرها أصالة مطولات بدر شاكر السياب (الأسلحة والأطفال) و(المومس العمياء) و(خفار القبور).

ولا شك أن الطلاسم تعد إرهاصاً بميلاد مطولات الخمسينيات. حين تقرأ المقطعة الأولى من طلاسم أبي ماضي[7]:

جئتُ لا أعلمُ من أين، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئتُ هذا أم أبيت
كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي ؟
لست أدري

تجد تصويراً دقيقاً للحيرة التي تتنصب سؤالاً أبدياً يستفسر عن سر الخلق وعجز الإنسان عن إدراك حل هذا اللغز. ويزيد الأمر إيضاحاً وإبرازاً لمعنى الحيرة هو إعلان الجهل التام باللازمة (لست أدري!) التي تلازم مقاطع القصيدة كلها لتعلن عدم العثور على حل لألغاز الحياة المحيّرة. وتشتد الحيرة وتتصاعد بنمو القصيدة وتتوالى الأسئلة في تكرار لست أدري في نهاية كل مقطع دونما إجابة عن هذه الإشكالات التي عبر عنها عنوان القصيدة أدق تعبير فكانت كلها طلاسم لا يعرف حلها أحد وأوّلهم الشاعر نفسه[8]:

أجديدٌ أم قديم أنا في هذا الوجود
هل أنا حرٌ طليقٌ أم أسيرٌ في قيود
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود
أتمنى أنني أدري ولكن ...
لست أدري

فالمقطع الماضي يثير من الأسئلة ما يعبر عن اشتداد الحيرة ، فالسؤال الأول يضعنا أمام إشكالية التناسخ في وعي أو لا وعي من الشاعر ، والسؤال المتضمن في البيت الثاني من المقطع يثير موضوعه (القدرية) و(الجبرية) أم أن قدره مكتوب عليه .

أما المقطع الثالث فيعبر عن نوع من الضياع الذي يفقد الإنسان فيه اتجاهاته أمام إشكالات الوجود يقول أبو ماضي[9] :

وطريقي ما طريقي ؟ أطويلٌ أم قصير؟

هل أنا أصعدُ أم أهبط فيه وأغور

أأنا السائر في الدرب أم الدرب يسير

أم كلانا واقف والدهر يجري؟....

لست أدري

على أن مبعث هذه التساؤلات وإعلان الحيرة أمامها مبعثه التأمل العميق والتفلسف وهما من خصائص الشعراء الرومانسيين المعروفة. والمهجريون بعامة فضلاً عما عرف عنهم من كونهم كثيرو التأمل وهذه الصفة في كتابات جبران وميخائيل نعيمة بالإضافة إلى أبي ماضي.

وفي المقطع الخامس يصرّح بأن ما يتساءل عن إجاباته (ألغاز) محيرّة ومن ثمَّ تستحيل الإجابة عنها[10]:

أتراني قبلما أصبحت إنساناً سويّا

كنت محواً أو محالاً أم تراني كنت شيّا

ألهذا اللغز حلٌ ؟ أم سيبقى أبديّات

لست أدري ... ولماذا لست أدري؟...

لست أدري

والغريب في المقطع الماضي، فضلاً عن إثارة موضوع لغز الحياة ، تساؤل الشاعر عن سر عدم درايته كنه هذا الجهل، ثم إعلانه في الختام أنه ليس يدري لماذا ليس يدري؟ إذن هي قضية حلقة مفرغة يدور فيها الشاعر.

والغريب في هذه المطوّلة أنها تحمل مجموعة عناوين داخلية ، فبعد المقطع الخامس يتصدر عنوان جديد هو (البحر) اثني عشر مقطعاً. والمقطع الأول من هذه المجموعة يضم أسئلة ملغزة أخرى تتعلق بأسرار البحر ، يقول الشاعر[11]:

قد سألت البحر يوماً هل أنا يا بحر منك ؟

أصحيحٌ ما رواه بعضهم عنّي وعنكا؟

أم ترى ما زعموا زوراً وبهتاناً وإفكا؟

ضحكت أمواجه مني وقالت :

لست أدري

وفي المقطع الثاني من مجموعة (البحر) يناجي أبو ماضي البحر ويسأله: إذا كان الشاعر يعلن جهله بأسرار الكون فان البحر هو الآخر جاهل مثله أيضاً، لذلك صرّح الشاعر مخاطباً البحر ليعلمه أنه أسير هذه الألغاز مثل الشاعر يقول له[12]:

أنت يا بحر أسي آه ما أعظم أسرك

أنت مثلي أيها الجبار لا تملك أمرك

أشبهت حالك حالي وحكى عذري عذرك

فمتى أنجو من الأسر وتنجو؟

لست أدري

هما إذن أسيران هو والبحر أسيرا ألغاز الوجود. وتمثل هذه المعاني والرؤى وما تعبر عنه من حيرة تماهي الشاعر مع الطبيعة والارتماء بأحضانها ومحاولة كشف أسرارها وهي نزعة رومانسية واضحة في سلوك الرومانسيين وأدبهم. وهكذا تمضي كل مقاطع مجموعة

البحر في حوار مع البحر ومشاركته الحيرة والضياع والجهل بأسرار الحياة، لينتقل الشاعر بعدها إلى مجموعة مقاطع (الدَّير)، وفيها نجد نقداً لاذعاً لسكان الدير ملخّصه أنهم لا يدركون سر الوجود ومعميات الحياة رغم أنهم انقطعوا عن الدنيا ليعرفوا أسرار الحياة. والشاعر يعجب أمرهم ويقول: كيف يمكن أن يدرك هؤلاء (الشمس) ويقصد بها (الحقيقة) وقد برقعوا عيونهم وستروها بظلمة الدير في حين نعجز نحن الذين لم تستر عيوننا البراقع عن معرفة سر الشمس والحقيقة يقول[13]:

قيل لي في الدير قومٌ أدركوا سرّ الحياة

غير أني لم أجد غير عقولٍ آسنات

وقلوب بَليتْ فيها المنى فهي رُات

ما أنا أعمى فهل غيري أعمى ؟

لست أدري

قيل : أدرى الناس بالأسرار سكان الصوامع

قلت : إن صحّ الذي قالوا فإن السرّ شائع

عجباً كيف ترى الشمس عيونٌ في براقع

والتي لم تتبرقع لا تراها؟

لست أدري

بل إن في كلا هذين المقطعين من مقاطع مجموعة (الدير) نقد شديد لسكان الأديرة ونسكهم ووصف لهم بأنهم ميتّو المواهب. وعلى هذا المنوال وفي نغمة رومانسية متشائمة تمضي بقية مقاطع(الدير) لينتقل الشاعر بحيرته وتشاؤمه وألغازه العصيّة على الحل إلى مجموعة (بين المقابر) حيث الدود يعبث في محاجر الموتى ومن ثمّ فلا أمن حتى في المقابر يقول[14]:

ولقد قلت لنفس وأنا بين المقابر

هل رأيت الأمنَ والراحة إلا في الحفائر

فأشارت فإذا للدودِ عيث في المحاجر

ثم قالت : أيها السائل إني

لست أدري

ويتخذ الشاعر من موضوع المقابر فرصة للتعبير عن تأملاته الرومانسية التي تحلم بمساواة الناس حيث يرقد العبد إلى جانب صاحب الصولجان، والعاشق إلى جانب هاجره، فيخاطب نفسه قائلاً[15]:

انظري كيف تساوى الكلّ في هذا المكان

وتلاشى في بقايا العبد رب الصولجان

والتقى العاشق والقالي فما يفترقان

أفهذا منتهى العدل ؟ فقالت :

لست أدري

ومن الموضوعات التي يلتقي الرومانسيون في معالجتها من زوايا نظر مختلفة متعددة موضوع الموت. وفي هذا المقطع (بين المقابر) يجد أبو ماضي الفرصة مواتية لتناول موضوع الموت يقول[16]:

إن يكُ الموتُ هجوعاً يملأ النفسَ سلاما

وانعتاقاً لا اعتقالاً وابتداءً لا ختاما

فلماذا أعشق النوم ولا أهوى الحِماما

ولماذا تجزع الأرواح منه

لست أدري

ثم بعد هذا المقطع يأتي الشاعر إلى القضية التي حار فيها الفاسفة والمفكرون والمتأملون وهي موضوع ما بعد الموت، يقول[17]:

أوراءَ القبر بعد الموت بعثٌ ونشورُ

فحياةٌ فخلودٌ أم فناء فدثور

أكلام الناس صدق أم كلام الناس زور

أصحيح أن بعض الناس يدري؟

لست أدري

ولا شك في أن مثل هذا التفكير لا يتلاءم مع تفكير المؤمنين بالكتب السماوية . وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى موضوع آخر من المقاطع تحت عنوان (القصر والكوخ) وهو موضوع طالما ناقشه الشعراء ذو الحس المرهف وذوو النظرة الإنسانية.

وينطلق الشاعر في مقاطعه الثلاث الأولى لتأكيد أن ما يبنيه الموسرون من قصور شاهقة سيؤول إلى الزوال وأنها لن تدوم يقول في المقطع الثاني من هذه المجموعة [18]؟

كم قصورٍ خالها الباني ستبقى وتدوم

ثابتاتٍ كالرواسي ، خالداتٍ كالنجوم

سحب الدهر عليها ذيله فهي رسوم

ما لنا نبني وما نبني لهدمٍ ؟

لست أدري

والنظرة الرومانسية واضحة في تساوي الفقراء بالأغنياء بالإنسانية يقول[19]:

لم أجد في القصر شيئاً ليس في الكوخ المهين

أنا في هذا وهذا عند شكّي ويقيني

وسجين الخالدين الليل والصبح المبين

هل أنا في القصر أم في الكوخ أرقى؟

لست أدري

ومن تأملات الشاعر الرومانسية المتفلسفة موضوع (الفكر) التي كرس لها أبو ماضي محوراً خاصاً عالج ما يطرأ في الفكر من سوانح وخواطر يقول[20]:

رُبّ فكرٍ بان في لوحة نفسي وتجلّى

خلته مني ولكن لم يقيم حتى تولّى

مثل طيفٍ لاح في بئر قليلا واضمحلا

كيف وافى ولماذا فرّ مني؟

لست أدري

ويتساءل هلب الأفكار تسبح من نفس إلى نفس أخرى فتخطر في خاطر إنسان آخر كما تخطر في باله[21]:

أتراه سائحاً في الأرض من نفس لأخرى

رابه مني أمرٌ فأبى أن يستقرّا

أم تراهُ مرّ في نفسي كما أعبرُ جسرا

هل رأته قبل نفسي غيرُ نفسي؟

لست أدري

ويختتم أبو ماضي طلاسمه بمجموعة أفكار وتأملات فلسفية أخرى كما هي عادة الشعراء الرومانسيين . والمجموعة الجديدة من هذه المقاطع تحمل عنواناً فرعياً هو: (صراع وعراك) وفي هذا المحور يجمع غرائب الأفكار والتأملات يبدؤها بالحديث عمّا يعانيه من صراع داخل نفسه بين نزعات الخير ونزعات الشر[22]:

إنني أشهد في نفسي صراعاً وعراكا

وأرى ذاتي شيطاناً وأحياناً ملاكا

هل أنا شخصان يأبى ذاك مع هذا اشتراكا

أم تراني واهما فيما أراه؟

لست أدري

ومن هذه المتناقضات التي يحار الشاعر في تفسيرها فلا يجد جواباً عنها ما يلاحظه من تحوّل قلبه من روضة إلى قفر كناية عن شعوره بالسعادة حيناً وبالحزن حيناً آخر، قوله[23]:

بينما قلبي يحكي في الضحى إحدى الخمائل

فيه أزهار، وأطيار تغنى، وجداول

أقبل العصر فأمسى موحشاً كالقفر قاحل

كيف صار القلب روضاً ثم قفراً؟

لست أدري

ولا شك أن المقطع الماضي تعبير عن الإحساس بما في هذه الحياة من تناقض. ومثل ذلك شعوره بالسعادة أيام الطفولة وضياع هذا الشعور حينما بدأ يتقدم به العمر في قوله[24]:

أين ضحكي وبكائي وأنا طفلٌ صغيرٌ

أين جهلي ومزاحي وأنا غضٌ غرير

أين أحلامي وكانت كيفما سرت تسير

كلها ضاعت ولكن كيف ضاعت؟

لست أدري

وفي مقطع آخر يعبر الشاعر عن دهشته من عدم استقراره على حال واحدة أي إنه يعبر عن شعوره بالقلق في قوله[25]:

كلَّ يوم لي شأنٌ كلَّ حين لي شعور

هل أنا اليوم منذُ ليالٍ وشهور

أم أنا عند غروب الشمس غيري في البكور

كلما ساءلت نفسي جاوبتني :

لست أدري

الخاتمة :

هكذا كنا مع مطوّلة الطلاسم التي أحجم بعض النقاد عن تحليلها [26] بإزاء ملحمة من ملاحم الشعر الرومانسي في تأملاتها الفلسفية وتعبيرها عن حيرة الشاعر أمام ألغاز الحياة وأسرارها ، وأمام القضايا الكبرى التي حيرت الفلاسفة من بدء التاريخ .

ومما ينبغي أن يلاحظ في كل مقاطع الطلاسم بساطة اللغة وسهولتها وبساطة تراكيب الجمل الشعرية وانسياب التعابير وحلاوة الأسلوب والابتعاد عن الألفاظ الغريبة والأساليب المعقدة . وهذا الانسياب الأسلوبي والوضوح في المعاني وقرب الرؤى والأخيلة من الفهم هو من خصائص الشعر المهجري بعامة ." وايلياء في مكل ذلك شاعر صادق الحس ، أصيل التجربة ، عميق الصلة بالطبيعة...يرى الإنسان ويتأمله ويحس بمشكلاته عبر مشاهدها ، ويفكر في الحياة والكون خلالها"[27] .

وبعد ذلك يمكن أن نقول إن هذه المطّلة تعد من جملة القصائد التي أرهصت بميلاد المطوّلات التي ازدهرت في أواسط الخمسينات من القرن الماضي.

الهوامش:

[1] إيلياء أبو ماضي: الجداول، ط17، دار العلم للملايين، بيروت، 1986م، ص 139 .

[2] عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، بيروت، 1979م، ص 247.

[3] محسن أطمش: دير الملاك، بغداد، ص 75.

[4] عبد الجبار عباس: السياب، بغداد،1981م، ص 27.

[5] جلال الخياط: الأصول الدرامية في الشعر العربي، بغداد، 1982م، ص 100.

[6] عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر، ص 245.

[7] إيلياء أبو ماضي: الجداول، ص 139.

[8] المصدر نفسه،ص 140.

[9] المصدر نفسه، ص 140

[10] المصدر نفسه، ص 141

[11] المصدر نفسه، ص 142.

[12] المصدر نفسه، ص 143.

[13] المصدر نفسه، ص 148.

[14] المصدر نفسه، ص 153.

[15] المصدر نفسه، ص 153

[16] المصدر نفسه، ص 155.

[17] المصدر نفسه، ص 156.

[18] المصدر نفسه، ص 159

[19] المصدر نفسه، ص 159.

[20] المصدر نفسه، ص 161.

[21] المصدر نفسه، ص162.

[22] المصدر نفسه، ص 163.

[23] المصدر نفسه، ص 164.

[24] المصدر نفسه، ص 164.

[25] المصدر نفسه، ص 165.

[26] إحسان عباس، محمد يوسف نجم: الشعر العربي في المهجر، ص 168.

[27] أنس داود: الطبيعة في شعر المهجر، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص55.